تصدير

هذا الكتاب ثمرة معايشة طويلة حميمة لأدب إدوار الخراط، قاصًا وناقدًا ومترجمًا. فهو يبدأ بمقالة عن مجموعته القصصية الأولى «حيطان عالية» (١٩٥٩) وينتهي بمقالة عن أحدث رواية له «طريق النسر» (٢٠٠٢). أربعة عقود تغيرت فيها أشياء، وجدّت أمور، وبادت أسماء، ولكن إدوار الخراط ظل مثابرًا على التطور من عمل إلى عمل.

دعوت الكتاب «الإغارة على الحدود» لأن أدب إدوار الخراط ـ عندي ـ تكمن دلالته في إغارته المستمرة ـ معرفيًا وتقنيًا ـ على الحدود الفاصلة بين الواقع والحلم، الجسد والروح، الفصحى والعامية، ولعلي كنت ـ في اختيار هذا العنوان ـ أنظر من بعيد إلى قول سان جون پرس: «يرفض الشعر أن يفصل الفن عن الحياة، وأن يفصل عن الحب المعرفة، فهو حركة، وهو عاطفة، وهو قدرة، وتجديد دائمًا يغير مواقع الحدود» (ترجمة د. أنور لوقا ـ مجلة «المجلة»، يونية ١٩٦٢).

ليس هذا الكتاب أول كتاب مستقل عن الخراط في العربية، فقد سبقته ستة كتب على الأقل، ولكن كاتبه يفخر بأنه كان من أوائل من كتبوا عن الخراط: فمقالته عن «حيطان عالية»، ظهرت في مجلة «الأدب»، التي كان يصدرها المرحوم الأستاذ أمين الخولي، في عدد أكتوبر / نوفمبر ١٩٦٢. لقد نما صاحب هذا الكتاب مع الخراط، وتشكلت حساسيته بكتاباته، بل لقد تأثر به (كما تأثر بأدونيس) في خط اليد الذي يرسم به كلماته. لكن دَيْنَهُ له لم يجعله غافلاً عما يبدو له عيوبًا في عمله.

لم تكن الريح رخاء دائمًا بين القاص وناقده (وإن ظلت المودة الشخصية قائمة دائمًا، مع فترات من الفتور)، ففي عدد نوفمبر ١٩٩٤، مثلاً، من مجلة «إبداع» (التي يرأس تحريرها الشاعر أحمد

عبدالمعطى حجازى) كتب الناقد تحت عنوان «تعقيبات وردود»:

الأستاذ رئيس التحرير

نشر إدوار الخراط فصلاً من رواية جديدة تحت عنوان «سورات بائدة» فى عددكم الماضى (سبتمبر ١٩٩٤). ولست أتحدث فى هذه الرسالة عن فن الخراط وإنما عن علمه. يقول: «كان كيتس وشيلى وبروانتج مسلولين، وأصيب بالجنون... شارلز لامب» وفى هذه الجملة القصيرة يتمكن الخراط من أن يجمع بين أربعة أخطاء ما كان ليقع فيها من له أدنى دراية بتاريخ الأدب الإنجليزى: (١) لم يكن شيلى مسلولاً. (٢) حين يقال «بروانتج» ينصرف الذهن إلى الشاعر الفيكتورى روبرت بروانتج، وهو بدوره لم يكن مسلولاً، بل كان مثال الصحة والنشاط وإنما المريض هو الفتاة التى أحبها وأصبحت فيما بعد زوجته - ضد إرادة أبيها الصارم، وبعد أن فرّ بها بروانتج من شارع ومبول ليتزوجها ويعيشا فى إيطاليا - وقد تحسنت صحتها بعد الزواج تحسنًا ملحوظًا مما يؤكد انطباعى من قديم - وهو ما تؤكده الخبرة اليومية وملاحظة الحياة - أن خير علاج لأدواء النساء هو ضجعة طيبة، يتلوها حمام منعش تحت الدُش، وهنّ يدندن فرحات بالغناء، ثم فنجان من الشاى الساخن. (٣) صواب نطق الاسم الأخير «لام» وليس «لامب» حيث إن الباء الأخيرة فيه صامتة. (٤) لم يكن تشارلز لام مجنونًا، وإنما أخته مارى هى التى أصيبت بنوبة جنون اندفعت في أثنائها لتطعن أمها بسكين فتجهز عليها وتجرح أباها. وقد عانى لام من جنونها هذا، ولكنه ظل يقوم على رعايتها بكل صبر ورفق بقية حياتها. وقد اشترك الأثنان فى وضع كتاب «حكايات من شكسبير».

وأنا يا سيدى، دائمًا، خادمكم المطيع.

ماهر شفيق فريد

وفى العدد التالى من المجلة (ديسمبر ١٩٩٤) كتب الخراط يرد عليه:

الأستاذ رئيس التحرير

تحية طيبة وبعد

فقد اطلعت على تعقيب الدكتور ماهر شفيق فريد المنشور فى «إبداع» الغراء (عدد نوفمبر ١٩٩٤) بشأن «سورات بائدة».

أحب أولاً أن أسجل هنا إعجابى الكبير بدأب الدكتور ماهر، وبمقدرته الخارقة على تتبع التواريخ والمعلومات، وبمثابرته على الإحاطة «بالعمل» الأدبى، فضلاً عن مناقبه الأخرى، بالطبع، ولكنى أتصور أن النقطة الأساسية فيما أثاره الدكتور ماهر قد فاتته، للأسف.

فليست «سورات بائدة» مقالاً فى التاريخ الأدبى بل هى فصل من رواية.

وليس الخراط هو صاحب «المعلومات» التى جاءت بالرواية، بل هو الرواى - السارد صاحب الخطرات والسورات التى هى موضوع ذلك الفصل من الرواية، كما لا أظنه يغيب عن فطنة الدكتور ماهر أو يخطئه علمه.

ولم يكن الأمر بحاجة إلى «علم» منى، حتى أورد «المعلومات» الصحيحة، فما أيسر الرجوع إلى موسوعة من الموسوعات الكثيرة المتاحة فى التاريخ الأدبى، وما أيسر تصفح كتاب من كتب الأدب الإنجليزى (التى كان الطالب النابه ماهر شفيق يستعير من مكتبتى الخاصة أكوامًا منها - فى الأعوام الغابرة الآن ١٩٥٩ و١٩٦٠ وما بعدها) ما أيسر ذلك كله أو بعضه لكى نعرف أن شيلى لم يكن مسلولاً، وأن زوجة بروانتج هى التى أصيبت بذلك الداء «الرومانتيكى» الذى كان ميسم الشعراء والعشاق والحالمين المأساويين فى فترة من فترات ازدهار الرومانتيكية (أو الرومانسية أو الرومانتية - حتى لا نتعرض لتصحيحات أخرى!).

هذا إلى أن الخراط كان قد قرأ - مثلاً - «أريل» سيرة أندريه موروا الجميلة الدقيقة معًا فى العام ١٩٤٢ ...

أما هذا الفتى الآخر، الراوى السارد فى رواية «أبنية متطايرة» (وهى ليست - أكرر ليست - سيرة ذاتية) فليس مؤرخًا ولا فقيهًا فى تاريخ الأدب بل هو رومانتيكى آخر، ولعله رومانتيكى - ضد، تخطر له شطحات، وتعتريه سورات، ولكنه لا يأتى أحدًا بمعلومات.

انظر، فقط، عنوان الرواية: أبنية متطايرة..!

ولعل هذه القائمة من «المعطوبين» التى جاء بها ذلك السارد الشاطح، من محض خياله، أو من طرائف واقعية أو متوهمة استقاها من مصادر تلك الحقبة من الزمان فى الأربعينيات، على نحو مجلات مثل «المقتطف» أو «اللطائف المصورة» أو غيرها، وهى مصادر جاء ذكرها عرضًا وفى مواقع أخرى من نصوص تتناول حكاية ذلك الراوى السارد، البائد أو الراهن سواء، كما يعرف الدكتور ماهر معرفة جيدة، فقد قرأ مخطوطة الرواية كلها مرقومة على الآلة الكاتبة، بأجنحتها الثلاثة: رقرقة الأحلام الملحية، أبنية متطايرة، حريق الأخيلة، منذ شهور خلت. هل قرأها الدكتور ماهر، عندئذ، قراءة صحيحة، ثم قرأها عند النشر فى «إبداع» القراء بعين أخرى؟

أحب أن أسدى الشكر للدكتور ماهر شفيق فريد على أنه أتاح لى فى هذا التوضيح لمسألة لعلها من الوضوح بمكان، وإن كانت قد تغيب عن أحد القراء، أو عن إحدى القارئات، وهى، على وجه التحديد، أن الرواية بوصفها ذلك لا تحاكم بمعايير التاريخ والمعلومات صحيحة كانت أو خاطئة وأن «السياق» هو الحكم وهو المعيار، وليس التقاط نتف من كيان فنى تسرى فيه حياة متراسلة من الوظائف والدلالات، وهو كله مما لا يخفى على الدكتور ماهر.

أما حكاية إماتة الحروف الصامتة فى لغتها الأصلية، فيقول «لامب» بدلاً من «لام» فهل أحتاج أن أذكر الدكتور ماهر شفيق فريد، أننا فى العربية نُعرّب هذه الصوامت فنقول لويس الرابع عشر بدلاً من «لوى» الرابع عشر، ونقول «دبراس» بدلاً من «دبرا» وغير ذلك كثير، كما نفعل العكس أحيانًا

فنقول «شوسر» بدلاً من «تشوسر» وهكذا مما لا يكاد يحيطه الحصر.

وفي هذا «السياق» نفسه لعل الدكتور ماهر يأذن لي بأن أقول إننا لم نعد نوقع رسائلنا بـ «خادمكم المطيع» كما يفعل الإنجليز من فرط تأدبهم - أو لأسباب أخرى - بل نوقعها مثلاً: «وتقبلوا خالص التحية والاحترام».

المخلص

إدوار الخراط

هل لي أن أضيف الآن أني قد وجدت، بعد مزيد من المراجعة، أن الخراط كان على صواب وأني كنت مخطئًا فيما يخص تشالز لام؟ لقد وجدت أنه دخل فعلاً مستشفى الأمراض العقلية على فترات متقطعة، ولمدد قصيرة. هكذا ينضاف الجهل إلى العدوانية، ويتعين على الناقد أن يعتذر لقرائه وللخراط عن جهله المتسرع أو تسرعه الجاهل(*).

قد ظهرت، خلال العقود الأربعة الأخيرة، دراسات عن الخراط أعمق من هذا الكتاب وأفضل (يعكف شكرى الطوانسى حاليًا على إتمام أطروحته للدكتوراه عن أدب الخراط، ولا يخامرنى شك فى أنها ستكون عملاً ممتازاً، إذا حكمنا بأطروحته السابقة عن محمد إبراهيم أبو سنة). كتب عنه باحثون مصريون وعرب وأجانب، وترجمت

(*) ثمة مساجلة أسبق بين الخراط وماهر شفيق فريد على صفحات مجلة الأدب (نوفمبر ١٩٦٣). ففي ذلك العدد كتب الأخير مقالته (التى تجدها فى هذا الكتاب) عن قصة «تحت الجامع» ورد عليها إدوار الخراط فى العدد ذاته بمقالة عنوانها «الفنان ناقد أيضًا» (أعاد الخراط طبعها فى كتابه «أنشودة للكثافة»، دار المستقبل العربى ١٩٩٥). وحين نشرت مقالة ماهر شفيق عن «اختناقات العشق والصباح» فى مجلة إبداع (أغسطس ١٩٨٤) رد عليها الروائى الراحل عبدالحكيم قاسم فى نفس المجلة (سبتمبر ١٩٨٤) بمقالة عنوانها «تكلف الكاتب وحيرة القارئ».

أعماله إلى عديد من اللغات الأجنبية، ولكن هذا الكتاب يظل - فيما آمل - على شيء من القيمة لأنه كان، في تخلقه عبر السنين، نتاج محبة صادقة وقراءة متمعنة وإخلاص للعمل المنقود.

ماهر شفيق فريد
الدقي، مايو ٢٠٠٢